كيدُ الرجال

بالرغم من إرهاقي الشديد بسبب كثرة التنقل بين وسائل المواصلات وازدحام الشوارع، جلستُ على أول مقهى عندما نزلتُ من الأتوبيس بالقرب من البيت. أحسستُ بأن بعض الأبيات النثرية لا تريد أن تكف عن الصخب في رأسي، خاصة وأن أذني التقطت في المواصلات الكثيرَ من الأصوات المتنوعة المفعمة بالحياة والتحمُّل برغم الألم والمعاناة.

سحبتُ نَفَسًا من الشيشة وأتبعتُه برشفة من كوب الشاي الساخن وأخرجتُ ورقة من جيبي، بادئا في الكتابة. سمعتُ صوتًا يسألني عمَّا أكتبُه. رفعتُ وجهي نحوَه. لم أتبيَّن ملامحَه. قلتُ له باستغرابٍ أو استنكارٍ:

- نعم!

ردَّ عليَّ بنبرة حيادية:

- ماذا تكتب؟ أنا من أمن المقهى.

كتمتُ نبرةً ساخرةً ولم أقل له: "لستَ أنت الوحيد الذي تكتب، لكنني لا أكتب التقارير". رددتُ عليه محاولا المرح:

- يعني أمني أنا. ألستُ جالسًا على المقهى؟

قال:

- التزمْ الأدب وإلا أخذتُكَ إلى مكان لا تعرفه.

نظرتُ إليه نظرةً حياديَّةً تمامًا، قائلًا:

- انتهى عصرُ الطوارئ وكلنا نكافح الإرهاب.

أعاد سؤاله كأنه لم يسمعني:

- ماذا تكتب؟

فقلتُ له بكل هدوء:

- بالرغم من أنَّها حريَّةٌ شخصيَّةٌ ولا يحقُّ لك أن تسألَ، سأقول لك إنني أندِّدُ بالإرهاب. هل تستطيع أن تقول شيئًا؟!

مد يده ليسحب الورقة، لكنني طويتُها في يدي على الفور، وقلتُ صارخًا:

- يا ناس، يا جماعة، هذا الرجل يريد أن يجعلني من قوم لوط.

وأخذتُ أتأمل الأيادي التي انهالتْ عليه من كلِّ اتِّجاهٍ، دون أن يستطيعَ أن يتكلَّمَ أو يَفْلِتَ من قبضتِهم.

٢٣ يناير ٢٠١١